مجلة الإحياء، المجلد: 18، العدد: 21، جوان 2018، ص - ص: 309 – 326
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

الخطاب الصوفي
ودوره في مكافحة التطرف وصناعة السلام العالمي

The Sufism discourse and its role in combating extremism and promoting the global peace

طالبة الدكتوراه: **رشا روابح**
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة1
racha.rouabah@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/05/11 تاريخ القبول: 2018/06/02

الملخص:
يقوم الخطاب الصوفي على مبدأ المحبة كأصل للوجود، فينعكس ذلك في سلوك الصوفي من خلال تعامله مع الله والإنسان والكون، كما يسمح هذا الخطاب بتجاوز وهم الحقيقة الدينية الحصرية، وبإعادة قراءة النصوص في اتجاه إنساني كوني، وبذلك يفسح مجالات واسعة للتقارب والتحاور والتجاور بين الأنا والآخر، وذلك بناء على مبدأ الرحمانية؛ أي تجلي الرحمان في كل الموجودات على اختلافها، ومنه يساهم الخطاب الصوفي بشكل فعال في روحنة الإنسانية وإنقاذها من النزعة المادية وما يترتب عنها من مظاهر العنف والتطرف والإرهاب.

الكلمات المفتاحية:
الخطاب الصوفي؛ التطرف؛ السلام؛ المحبة؛ الأنا والآخر؛ التسامح.

Abstract:
The Sufi message is built on the principle of love as the basic of existence, which is reflected in the Sufi's behavior through his interaction with God, humans, and the universe. The sufi message helps in surpassing the exclusivity if religious truth, by re-reading the text in a human universal way, and therefore it opens the doors for the convergence and the dialogue between the self and the other in the basic of mercy, which means the manifestation if the merciful in all different beings. The sufi message effectively contributes in the

spiritualization of humanity by rescuing it from all forms violence, extremism and terrorism that ensue from the materialist tendency.
key words:
Sufi discourse; extremism; peace; the self and the other; tolerance.

المقدمة:

يحتل الخطاب الصوفي موقعا هاما في الثقافة الإنسانية، وذلك لثرائه وقدرته على مزاحمة الخطابات الكبرى في الثقافات البشرية، لما يكتنزه من أبعاد معرفيّة، ولما يلعبه من أدوار حضاريّة حكمت بتجدّده وانفتاحه؛ فقد استطاعت أفكاره أن تتجذر وتغري فئات كبيرة من الباحثين للغوص فيه، لما يحمله من رموز وإشارات قامت على تعميق معاني العقيدة واستبطان ظواهر الشريعة، واستقراء أحوال الإنسان ومساءلة مكانته ووظيفته في الكون. وقد حمل الخطاب الصوفي بين طيّاته جملة من العناصر النظرية المعرفيّة والروحية تكشف دراستها عن قواعد في السلوك ومبادئ في القيم، سعى الصوفيّة إلى تجسيدها عمليا فطبعت بذلك حياتهم، وكانت مثيرة لردود أفعال متباينة إزاءهم بين التأييد والاعتراض.

ونتيجة لتباين المواقف تجاه الخطاب الصوفي، انتعش الأخير واكتسى البقاء والاستمراريّة ليؤكد حضوره الفاعل والمتواصل في الحياة، ومع ذلك ما يزال حبيس أفق تداولي ضيق لا يفي بتعميم ما يكتنزه من فوائد، لذا كان الكشف عن مضامينه وتسليط الضوء على محوريته في مدونة التأليف الإنساني يشكل الحاجة الأكثر إلحاحا في الوقت الحالي، لما يقدمه من معرفة مخصوصة بالله والإنسان والكون، وبالعلاقة بين هذه العوالم الثلاث؛ هدف هذه المعرفة الارتقاء بقيمة الإنسان والتأكيد على محوريته ومركزيته في الوجود وإزالة الفوارق والعوائق بين بني الإنسان، ومن هنا تأتي **أهمية الموضوع**، لما يسعى إليه هذا الخطاب من إشاعة ثقافة السلم والتعايش، والتسامح والحوار، والتلاقح بين الحضارات والثقافات والديانات، خصوصا في هذا الزمن الذي يعاني من هاجس الإسلاموفوبيا بسبب (داعش) وأخواتها ممن ساهم في تشويه صورة الإسلام وربطه بالتطرف والإرهاب.

لذلك يزداد الطلب على ضرورة إعادة صياغة قناعات الإنسان الفكرية بالعمل على صياغة الخطاب التربوي والتوجيهي في مختلف المجالات، بالشكل الذي يكون أكثر وظيفية وأكثر فاعلية في صياغة الأمن والأمان وصناعة مشاريع المحبة والسلام، ولذلك كان الالتفات إلى الخطاب الصوفي والحديث عن التصوف والتجربة الصوفية أحد أوليات هذه الأصوات، بعد الإقصاء والتهميش الذي تعرض له هذا الخطاب ومحاولة عزله عن الجسم الفكري الاجتماعي. ومن هنا نطرح **الإشكالية** التالية: هل يسع الخطاب الصوفي أن يقوم بدور إيجابي فاعل في إنقاذ المجتمع

الإنساني من الأنا المتضخمة، والحدّ من ظاهرة العنف والتطرف ونشر ثقافة السلام العالمي؟ وكيف له أن يقوم بذلك؟

هذا هو السؤال الجوهري الذي ستحاول –بإذن الله- هذه الورقة الإجابة عنه من خلال: مدخل مفاهيمي يحدد المفاهيم ويضبط المصطلحات الواردة في العنوان، وثلاث محاور أساسية هي:

أولا- ثقافة المحبة والسلام في الخطاب الصوفي.

ثانيا- الرؤية الصوفية للعالَم والإنسان ودورها في تمتين ثقافة السلام.

ثالثا- عالمية الخطاب الصوفي واحتواؤه للآخر.

هذا وقد سبقت هذه الدراسة مجموعة من الدراسات التي قدمت لهذه الورقة مادة تمهيدية صالحة لأن تكون أساسا للتعميق، ومن أهمها: كتاب التصوف شهودا وحبا وخطابا وأثره في روحنة الإنسانية والتقريب بين الأنا والآخر، للدكتور أمين يوسف عودة. وكذا دراسة الدكتور أحمد بوزيان بعنوان: الخطاب الصوفي بين الهوية والاختلاف: الأنا والآخر. وأيضا دراسة الدكتور رشيد سعدي بعنوان: الدين بين الحقيقة الحصرية والعرفان الصوفي أوهام الهوية الدينية. وهي كلها دراسات قيّمة ونافعة، وقد تمحورت حول قيمة الأخوة الإنسانية في الفكر الصوفي، ودور التصوف في التقريب بين الأنا والآخر. وهي أهم العناصر التي تحوصلت حولها الدراسة التي بين أيدينا، إلا أن الجديد في دراستنا يكمن في إبراز الرؤية الصوفية للوجود وواجب الوجود ودورها في بناء الإنسانية الكونية، وكذا بيان دور المحبة كأصل للوجود في الانفتاح على جميع أطياف البشر، وتجاوز عقم جدلية الأنا والآخر، والحد من مظاهر العنف والتطرف.

مدخل مفاهيمي

أ- الخطاب الصوفي: تعني كلمة الخطاب في الاستعمال الشائع كل ما يُكتب أو يُنطق موجها إلى الغير لأجل إيصال فكرة ما. وهي عائدة للجذر (خطب) الحامل لمعان أهمها الكلام الموجه، فالمراد هنا بالخطاب الصوفي ما أنتجه الصوفية النظريون من آراء وطروحات فكرية[1].

ب- التطرف: يُعدّ التطرف من القضايا الرئيسية التي يطرحها الحال الإنساني المعاصر بقوة، ويعتبر الفكر المتطرف باعتباره نسقا معرفيا ظاهرة اجتماعية تتأثر بغيرها من الظواهر وتؤثر فيها، وترتبط ارتباطا وثيقا بالظروف السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية... الخ

والتطرف لغة معناه: الوقوف في الطرف، وهو ما يقابل التوسط والاعتدال.[2] وأما اصطلاحا فالتطرف يعني" المغالاة والإفراط والعصبية، وهو عكس الوسطية والاعتدال في جميع نواحي التفكير اتجاه المعتقدات والأفكار, وعلى هذا الأساس فإن التطرف هو مجموعة من المعتقدات والأفكار التي تجاوزت المتفق عليه سياسياً واجتماعياً ودينياً داخل الدول"[3]، كما يشير مصطلح التطرف وما شابهه كالتعصب

والغلو إلى الخروج عن المبادئ الفكرية والقيم والمعايير والأعراف والأساليب السلوكية الشائعة في المجتمع، معبّرا عنه بالانطواء أو بالسلبية والانسحاب، أو تبني مبادئ ومعايير مغايرة قد يكلّف الدفاع عنها توظيف العنف والترهيب بزعم التغيير في المجتمع وفرض الرأي بقوة على الآخرين، كما نلاحظه في السلوك المتشدد لبعض الجماعات الدينية.

ولا يمكن تجاوز هذه المعضلة الحضارية إلا بنشر نقيضها المتمثل في التوسط والاعتدال، وذلك بإفشاء لأهم مبدأ جاء به الإسلام وهو السلام.

ج- السلام العالمي: السلام العالمي في نظر الإسلام؛ هو نظرية إنسانية تقوم على احترام النوع الإنساني؛ مخالفا أو موافقا، معاديا أو مناصرا، ضعيفا أو قويا، مشابها أو مختلفا.. فهي نظرية متكاملة تنظر إلى العلاقة بين بني الإنسان على أنها علاقة نسب، هذا النسب هو الفطرة الإنسانية التي تقوم على أساس الحقيقة الكونية التي أعلنها نبي السلام حين قال: «كلكم لآدم وآدم من تراب[4]». [5]

فالسلام العالمي هو فكرة مثالية من الأمن والاستقرار واللاعنف الذي من خلاله تتقارب الدول والشعوب ومختلف الجماعات الإنسانية إراديا لا حتميا، ويشير السلام العالمي إلى توظيف وسائل سلمية من أجل الحد من مختلف الصراعات والأعمال العدائية بين بني الإنسان. فالمقصود بالسلام العالمي هو التمثيل الأعلى للحرية والسعادة والأمان والاستقرار بين جميع الجنس البشري.

أولا- ثقافة المحبة والسلام في الخطاب الصوفي

أهم مبدأ يرتكز عليه التصوف ولا يقوم إلا به هو مبدأ المحبة، باعتبارها أصل الوجود[6] استنادا للحديث القدسي الذي ينمّي في الصوفي فلسفة الحب الكونية، وهو: «**كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الخَلْقَ وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ فَبِي عَرَفُونِي**»[7]، فالحق أحبّ أن يعرفه خلقه، فاندرج الحب فيما خلق، ومن ثَم صار الحب ساريا في كل الموجودات، من بداية نشأتها إلى ما شاء الله تعالى، ومن هنا "فالمحبة مقامها شريف وهي أصل الوجود"[8]. وعليه يكون حب الصوفي كله لله، وإذا ما امتلأت الروح الإنسانية بأنوار الحب الإلهي الساري في كل ثنايا الكون، فإنها ستُشحن بطاقة إيجابية، متجددة بتجدد الشؤون الإلهية لاتصالها بالحق سبحانه وتعالى، ومنها تسري تلك الإيجابية لتعمّ كل ما يحيط بها، فتعمّ خيريتها. والتصوف من حيث هو حبٌّ، والحب من حيث هو أصل الوجود يمثل قوة محورية جاذبة للإنسانية التي أفناها الكره والبغض والخلاف، نحو التحرر والانعتاق من الطاقات السلبية الهدّامة، وإبدالها بطاقة الحب الإيجابية البناءة.

إن التجربة الصوفية تجعل من ممارسها إنسانا محباً، أفعاله كلها صادرة عن الحب وشهود الحق تعالى، حتى غضبه وعقابه يكون عن حب كعقاب الأم الحنون لولدها، هدفه الإصلاح والبناء لا الإفساد والهدم، فإذا رسخ هذا المعنى الراقي في الذات الإنسانية "رسوخ ذوق وسلوك، لا رسوخ فكر وحسب، فإنها ستجد لها صدًى

إيجابيًا نحو... أدبيات الصراع وأخلاقياته بين الأنا والآخر، فإن كان ولابد من الصراع فليكن صراعا إنسانيا رحمانيا، لا صراعا شيطانيا يدمر الأخضر واليابس"[9].

هذا وإن المقلّب لصفحات التراث التاريخي للتصوف يلاحظ منذ الوهلة الأولى ذلك الأثر البالغ للتصوف في تمتين الروابط الروحية بين جميع المكونات الثقافية والاجتماعية والقبليّة للكثير من المجتمعات التي كانت تمارسه وتتخذه منهجا للحياة، وكان ذلك تحت لواء واحد هو لواء المحبة والسلام، بناء على كون المحبة هي حقيقة الدين وجوهره، وهي غاية التربية الروحية والسلوك الصوفي بمختلف طرقه، وذلك بالسير بالمريد عبر مقامات التربية وأحوال التزكية حتى يصل إلى تحقيق مقام المحبة في نفسه؛ خلقا تعبديّاً يتجلى في كل حركاته وعلاقاته، الاجتماعية منها والسياسية والثقافية...وغيرها، بما هي علاقات وتصورات ومشاعر أيضا، لأن المحبة لا تلزم في الوجدان الروحي حدا معينا، بل تفيض مواجيدها فتنعكس في السلوك العام للإنسان وهذا هو سر القوة والتميّز في التربية الصوفية، فالتصوف في الأصل قائم على إشاعة الاستقامة والمحبة والإخاء بين البشر وامتصاص التطرف والعداء.

ويكون السلوك بالناس في الخطاب الصوفي –تربية ووعظا- بالتدرج بهم في المقامات والأحوال أمرا أساسيا لتنظيم الشأن الديني والاجتماعي والعلاقاتي، ولتهذيبهم حتى تصفو أرواحهم ويتحققوا بالمحبة خلّة ومقاما ثابتا، لأن مجتمعا يسوده خلق المحبة لا يصدر عنه ما يمزق نسيجه الاجتماعي والإنساني، بغض النظر عن اختلاف عقائد أفراده وايديولوجياتهم. وهو ما يقرره القرآن الكريم نفسه حين يؤكد على علاقة السلام واحترام الإنسان ويشير إلى ضرورة تقديم العلاقة الإنسانية على الخلفيات الدينية؛ فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء 94).

هذا وقد أصبحت قضية السلام من أوائل القضايا التي تشغل بال المجتمع الإنساني المعاصر، بسبب ما آلت إليه الأحداث في العالم اليوم وما يشهده من ضرب في هذا المكون الجوهري والحيوي المؤسس للمعيش الإنساني في جميع أبعاده؛ نفسيا واجتماعيا ودوليا. فأمام الانتشار الواسع والمهول لثقافة العنف والتطرف وهيمنتها على الذهنيات، والتي أصبحت تسحق كل مقومات التعايش الإنساني، صارت الحاجة ماسّة إلى ثقافة السلام لتمتين روابط المجتمع الإنساني وتحصينه من كل مظاهر العنف والتطرف، والحد من وتيرة الاشتباكات والصراعات التي تفتك باستقراره، تلك الثقافة يمكن أن نجد لها منفسحا في الخطاب الصوفي الذي يؤكد على التكامل والوحدة الإنسانيين.

فثقافة السلام التي تطبع الخطاب الصوفي، تقوم على نبذ مظاهر العنف والتطرف والإرهاب وما والاها، وتدعو إلى المحبة والتعايش وقبول الآخر وفق الحد الأدنى من المشتركات، لأن السلام من أسماء الله الحسنى، والسلام تحية المسلمين في

الدنيا وتحية أهل الجنان، وتحية المسلم في صلاته على النبي ﷺ، والسلام مقصد من مقاصد الإسلام في السلوك، وتكفي وحدة المصطلحين (السلام والإسلام) للدلالة على سلامة الإسلام من كل ما سوى السلام، كما إن استراتيجية التعايش في الإسلام تنطلق من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران 64)، وهذا هو أول نداء إسلامي للتعايش بين الحضارات. ولتحقيق ثقافة السلام أمر النبي ﷺ المسلمين بإفشائه فقال "سَلِّمْ عَلَى مَنْ تَعْرِفْ وَعَلَى مَنْ لاَ تَعْرِفْ"[10].

كَل هذه الحيثيات هي حاضرة في وعي الصوفية ومتجسدة في سلوكياتهم وخطاباتهم، فالتصوف لما يتمتع به من الصفاء الروحي هو كفيل بالدعوة إلى تحقيق السلام والأمن الاجتماعي والتسامح ونبذ التطرف والتناطح، وذلك استنادا إلى تعريف المصطلح ذاته بأنه "هو الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني"[11]، فها هو الشيخ حمزة البودشيشي يقول: "وددتُ لو توسّد الناس كلهم وسادة واحدة"، ويقصد بالناس هنا العالم بأسره، ما يعني أنه لا يوجد شرق وغرب وشمال وجنوب وغيرها من الفروق، وإنما هناك دار الإنسان. لذلك كان أتباع الطريقة البودشيشية يختمون أذكارهم دائما باسم الله "يا سلام"، وفي ذلك تربية للمريدين على التخلق والتحقق بالمعنى الرباني السلام[12].

هذا ومن أبرز صوفية بلادنا الذين نشروا الأمن والسلام اعتمادا على مبدأ المحبة، هو رجل الإنسانية والسلام الأمير عبد القادر الجزائري الصوفي –، الذي أسس مفهوما للإسلام يوحّد بين الدين والعلم والدولة والإنسانية، فمثّل بذلك أحسن مثال في ترسيخ قيم الإنسانية والسلام من خلال جهاده، وذلك ما يعكسه أول بيان كتبه للمجاهدين بعد توليه الإمارة مباشرة بحيث أوجب فيه على كل مجاهد في الجيش عدم تعريض الأسير أو الجريح للأذى أو الإهانة، واحترام إنسانيته إن كان فردا أو جماعة، وإن كان جريحا يجب عرضه على طبيب الكتيبة وتقديم كل ما يحتاج إليه من علاج ورعاية، وعدم مجاراة العدو بوحشية وتقطيعه، ومن يقطع رأسا أو أذنا ويحمله للقائد يعاقب فيُجلد ويُسجن، وكل من يأتي بأسير حيّ غير معان يُكافأ[13]. هذا الخطاب ألقاه الأمير في الوقت الذي كانت فرنسا تبيح كل تلك الجرائم وأكثر في حق الجزائريين وتكافئ عليها. والأمير هنا يؤكد على أن قيمة السلام ترفض العنف بشكل قطعي، وتدعو إلى الرفق والسلم حتى في أوقات العنف المُشرْعَن من قبيل الدفاع عن الوطن والدين.

كما لا ننسى ذلك الموقف الشجاع أيضا لفتوة الأمير حين تزعم المهاجرين الجزائريين في الشام لإنقاذ ما يربو على خمسة عشر ألف مسيحي من القتل في الفتنة التي اشتعلت في دمشق بين الدروز والنصارى سنة 1860، بحيث ساهم بموقفه هذا في لمّ الصدع الذي أصاب دمشق، بل وأنقذ العالم كله من دخول في حرب صليبية

أخرى، فوقف – متحديا جموعا هائجة من الدروز مندفعة لقتل النصارى ودوّى بصوته قائلا: "إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن تكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات بذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم... أحذركم من أن تجعلوا لسلطان الجهل عليكم نصيبا، أو يكون له على نفوسكم سبيلا. وما هذا الخطاب إلا تطبيق للحديث النبوي: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ ذِمِيًّا أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَنْقَصَهُ شَيْئًا مِنْ حَقِّهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسِهِ فَأَنَا خَصْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[14]. "[15]

ثانيا- الرؤية الصوفية للعالَم والإنسان ودورها في تمتين ثقافة السلام

العالم في اللغة هو "اسم لما يُعلم به كالخاتم لما يُختم به، وسُمي الخلق عالما لأنه علامة عن الصانع"[16]، وهو في منظور الصوفية كل ما سوى الله تعالى. ورؤيتهم له هي رؤية قارئ لكتاب يحكي من خلال آياته عن مكونه، ووسيلة معرفية تعرّف بصانعه، "والصوفية في مقامات انجذابهم إلى عالم الحضرة الإلهية، وارتقائهم عن المحسوسات والأحكام الدنيوية لا يرون في الكون نقصاً ولا قبحاً، ولا يشاهدون بعين القلب إلا الجمال الإلهي متجلّياً في كل شيء، مهما جَلَّ هذا الشيء أو دَقَّ، والسرُّ في هذه المشاهدة القلبية التي تأتي بالبصيرة لا البصر، هو ذلك الإيمان الصوفي العميق بأن الله هو الجوهر الحقيقي للوجود، وما عداه من الأغيار ومما سواه وَهْمٌ وتخييلٌ ومظاهرُ زائلة لا تقوم بذاتها، ويتوقف وجودها على شرط كونها تجليات إلهية، وفقاً لثالوث الذات الإلهية : الجمال، الكمال، الجلال، الذى يعبِّر بمجموعه الكلي عن هذه الذات من دون أن يقدح في وحدتها وفي الإيمان بوحدانية الله على الرغم من تعدُّد صفاته وأسمائه، وأسمائه الصفاتية"[17]. فالصوفي بترقيه عن المحسوسات يشعر بنوع من الذوق الإدراكي المرتبط بالفناء بتجلي الله جلّت عظمته في الموجودات جميعها وأن الله حاضر بأسمائه في كل شيء وهو حقيقة كل شيء، وبناء على هذه الرؤية فلا يوجد مجال في فكر الإنسان الصوفي لأي فعل من شأنه إحداث الفساد في هذا الكون، لأنه يؤمن بشكل جازم بأن الإفساد في الكون هو إفساد في صور تجلياته تعالى.

هذا المعنى جمع أطرافه الأمير عبد القادر في مواقفه قائلا: "أنه لا يصح ولا يستقيم لمن فتح الله عين بصيرته وأراه سريان الأحدية بلا سريان، وقيام القيومية في كل ذرة من ذرات الوجود، ورؤية الوجود الحق تعالى في كل شيء من غير حلول ولا اتحاد، أن يهجر شيئا من المخلوقات، بأن يحتقره ويزدريه ويجعله كالشيء اللقى، فإن هذا لا يصح من عارف مشاهد، كان ما كان ذلك المخلوق، حيوانا أو غيره، وعلى أي دين كان، وعلى أي ملّة ونحلة حصل." [18]

هذا وإن الوجود عند الصوفية هو حقيقة كاملة ودائرة محيطة، يُعد الإنسان مكونا من مكوناتها الأساسية، وأحد أطرافها المفترضة (الله، العالم، والإنسان)، وإذا كان العالم هو مظهر تجلي الله 1 فإن الإنسان (الكامل) هو المجلى الأعظم للحق

تعالى، "فالحق تعالى يتجلى في جميع صور الوجود، ويتجلى في الإنسان في أعلى صور الوجود وأكملها"[19]. والإنسان في الفكر الصوفي هو روح العالم؛ كمثل روح الإنسان بالنسبة إلى بدنه والتي لها صفة التدبير، ولا قوام للعالم لولا الإنسان، وهذا ما أكده ابن عربي في فصوصه حين قال: "وقد كان الحق سبحانه أوجد العالم كله وجود شبح مسوّى لا روح فيه، فكان كمرآة غير مجلوة...فكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة"[20]، وهو المعنى الذي أكده الأمير عبد القادر بقوله: "كان العالم قبل ظهور الصورة الآدمية كجسم مسوَّى لا روح فيه...فهذه الصورة الآدمية هي صورة الإنسان الذي هو مادة كل مخلوق، ونقطة الكون التي منها امتدت حروف العالم جميعه"[21].

والإنسان هو غاية إيجاد العالم ولذلك كان الإنسان آخر الموجودات من حيث النشأة، وهذا ما يقرّره ابن القيم في مسرد حديثه عن حكمة خلق آدم آخرا، مبينا قيمة هذا الكائن، حيث قال: "إنه سبحانه لما افتتح خلق هذا العالم بالقلم كان من أحسن المناسبة أن يختمه بخلق الإنسان، فإن القلم آلة العلم، والإنسان هو العالِم، ولهذا أظهر سبحانه فضل آدم على الملائكة بالعلم الذي خُص به دونهم، وتأمل...كيف نبه الملائكة على فضله وشرفه، ونوّه باسمه قبل إيجاده بقوله: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"، وتأمل كيف وسمه بالخلافة وتلك ولاية له قبل وجوده"[22].

وبما أن الإنسان هو علة وجود العالم، فإنه علة بقائه، فالعلة تتبع المعلول في الوجود والبقاء والزوال، "وهو [الإنسان] من العالم كفص الخاتم من الخاتم، وهو محل النقش"[23]، بل وهو العمد الذي يقوم عليه سقف العالم، حيث "جعل [الله] مسكن هذه النشأة نقطة كرة الوجود وأخفى عينها، ثم نبّه عباده عليها بقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (الرعد:2)، فإذا انتقل الإنسان إلى برزخ الدار الحيوان، مارت قبة السماء وانشقت فكانت شعلة نار سيّال كالدهان ... فقبّة لا تقوم من غير عمد، كما لا يكون والد من غير أن يكون له ولد، فالعمد هو المعنى الماسك، فإن لم ترد أن يكون الإنسان فاجعله قدرة المالك، فتبين أنه لابد من ماسك يمسكها، وهي مملكة فلابد لها من مالك يملكها، ومن مُسكت لأجله فهو ماسكها، ومن وُجدت له بسببه فهو مالكها"[24]. وهو المعنى الذي أشار إليه سيد الوجود ﷺ حين قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ وَفِي الأَرْضِ مَنْ يَقُول: الله الله»[25]، وأتم الخلق معرفة بالله هو الإنسان الكامل، فلا تقوم الساعة وفي العالم إنسان كامل.

والوظيفة الوجودية للإنسان في الفكر الصوفي هي الخلافة؛ ليس في الأرض فحسب بل في الكون كله، فإذا كان الإنسان هو روح العالم فلا قوام لهذا العالم إلا بذلك الإنسان الكامل، ما يعني أن الإنسان الكامل هو المدبر لهذا العالم تدبير الروح للجسد، وهذا ما أكده ابن عربي بقوله: "وإنما علّم الله سبحانه الإنسان الكامل أسماءَه الحسنى وأودعها فيه، فإن الإنسان الكامل روح العالم، والعالم جسده... وإن الروح هو مدبر البدن والمتصرف فيه"[26]. وحتى يحقق الإنسان وظيفته في الوجود يتعيّن عليه أن

يكون متخلقا بأخلاق ربه الذي نصّبه للخلافة، متحققا بصفاته بقدر الطاقة البشرية، فيتخلق باسمه تعالى الرحمان فيكون رحمة تمشي بين الخلق، ويتخلق باسمه "السلام" فيكون لمجتمعه أداة سلم وأمان ومصدر سلامة واطمئنان، وإذا كان من مفاهيم "السلام" السلامة من النقص والعيب، فإن الصوفي يجتهد في تطهير نفسه وتكميلها، والعمل على ترقيتها وتهذيبها بأن يسلم جوارحه من الاعتداء والآثام، وقلبه من الخواطر والأوهام. ويتخلق باسمه تعالى "الواسع" فيتسع قلبه لجميع الخلائق بارّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، مؤيدهم ومخالفهم... فيتقبل الآخر ويحترمه مهما كان ولا يلغيه لمجرد مخالفته. وقس على هذا بقية الأسماء الحسنى والصفات العلى وكيف تفعل فعلها في المتخلق بها.

إن هذه الرؤية الصوفية لمركزية الإنسان وقيمته الأنطولوجية والابستمولوجية الهامة لا تدع في عقل الصوفي ولا في قلبه مثقال ذرة من العدوان لهذا الكائن العظيم، الذي فضله تعالى على سائر الخلق وجعله بؤرة لتجلي الأسماء الحسنى، وإذا كان الله -جلّت عظمته- قد حرم الظلم على الإنسان وعلى نفسه فإن الإيمان الحقيقي لدى الصوفي هو أن نفعل كما يفعل الربّ، ومن هنا تتأسس مبادئ الإحسان والمحبة والتسامح انطلاقا من مقولة الرحمانية؛ أي حضور الرحمان في كل الموجودات وفي كل وذرة من الكون، متجلياً بصفاته -ليس حضور الذات بالحلول والاتحاد-، فمعنى التسامح هو الاعتراف بالآخر/ الأنا، والاعتراف به كحامل للمعنى الإلهي، ولنا في مأساة الحلاج درسا في ذلك؛ حيث يقول في واحد من أكثر نصوصه إنسانية: "يا بني إن بعض الناس يشهدون عليّ بالكفر وبعضهم يشهدون لي بالولاية، والذين يشهدون عليّ بالكفر أحبّ إليّ وإلى الله من الذين يقرّون لي بالولاية... فمن يشهدون لي بالولاية من حسن ضنهم بي، والذين يشهدون عليّ بالكفر تعصّباً لدينهم، ومن تعصب لدينه أحب إلى الله ممن أحسن الظن بأحد"[27]، وبهذا الوعي العرفاني يصبح جلاّدوه مجاهدين ويصبح هو شهيدا، ويدعو لهم بالغفران فيقول: "هؤلاء عبادك اجتمعوا اليوم لقتلي... فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي ما فعلوا ما فعلوه، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليتُ بما ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد"[28].

فالخلق إذن في المنظور الصوفي هم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، هذا المعنى الذي تحقق في خطاب الأمير عبد القادر الجزائري حين أجاب الأسقف بافي Pavy الذي راسله شاكرا صنيعه بالمسيحيين فقال: "ما فعلناه من خير للمسيحيين، ما هو إلاّ تطبيق لشرع الإسلام واحترام لحقوق الإنسان، لأن كل الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. إنّ كل الأديان من آدم إلى محمد عليهما السلام تعتمد على مبدأين هما: تعظيم الله جل جلاله، والرحمة بمخلوقاته, وما عدا هذا ففرعيات، والشريعة المحمدية من بين كل الشرائع هي التي تعطي أكبر أهمية

للاحترام والرحمة والرأفة وكل ما يعزز التآلف وينبذ التخالف، لكن المنتسبين للدين المحمدي ضيّعوه فأضلهم الله فجزاؤهم من جنس عملهم"[29].

هذا الخطاب الأميري ما هو إلا تحقق بالقول الإلهي: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة 08)، فالخطاب الصوفي يسمح بقراءة النصوص في اتجاه إنساني كوني، ويسعى إلى صناعة حياة تهدف إلى التوافق دون إقصاء لأحد، ويبني الإنسان الصوفي الذي لا يكره أحدا لأنه تحقق بالتوافق مع ذاته وارتقى إلى الاندماج مع الآخر والتواصل معه ومجاورته. ويختصر الشيخ الأكبر المعنى بقوله: "لن تبلغ من الدين شيئا حتى توقر جميع الخلائق ولا تحتقر مخلوقا ما دام الله قد صنعه"[30].

ثالثا- عالمية الخطاب الصوفي واحتواؤه للآخر

يتميز التصوف بالأفق العالمي، وهذا لا يعني زوال هويته الإسلامية أو التوحيدية بل يؤكد عمق التجربة وتجذرها في المخيلة الإنسانية، ولذلك يمكن أن يصل مختلف السالكين بمختلف مشاربهم إلى نفس الحقيقة، وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على وحدة الحقيقة ووحدة التجربة الروحية كما أشار محمد إقبال – في قوله: "فالروح البشرية وهي تُقدم على شيء بدافع عن نفسها، تقتدر شيئا فشيئا على أن تأتي بحقائق، ربما كشفتها أرواح أخرى منذ طويل زمان، وهذا يعني ولا شك وحدة الحقيقة من جهة، ووحدة التجربة الصوفية من جهة أخرى، على رغم من تباعد الشعوب والأمم"[31].

ولا يعترف الخطاب الصوفي بالفروق بين بني البشر، فهو يستقطب الجميع بلا استثناء، هذا الملمح نلمسه كمثال في سيرة واحد من أكثر الشخصيات الصوفية تأثيرا، وهو مولانا جلال الدين الرومي ذلك الإنسان الكوني الذي مثّل العولمة الإنسانية في أسمى صورها، بحيث كان يحضر في مجالسه مختلف الأجناس باختلاف دياناتهم واتجاهاتهم وأفكارهم - وهنا مكمن سر الشهرة والقبول الذي ناله الرومي ولايزال يحظى به- فقد "استطاع بخطابه الصوفي اختراق إيديولوجيا المتلقي الدينية أو المذهبية أو الفكرية أو أية إيديولوجيا من شأنها أن تحد من أفق الأنا المفكرة, وأن تختزل رؤاها في اتجاه واحد يفضي إلى إقصاء الآخر، فقد كان الرومي يُسمع المتلقي صوتا غير صدى صوته, ويطلعه على عوالم أعمق من عالمه الفكري الضيق وأرحب وأشف. وهو خطاب إنساني لأنه يلائم فطرة الإنسان الأولى الماثلة في محبة خالقها, ويرمي إلى المحافظة على الوجود الإنساني وتكميله بصفات الكمال والجمال, ويلائم الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأزمانهم وأماكنهم ومعتقداتهم , ويتوجه إلى الإنسان باعتباره غاية في ذاته"[32]، ومن المعلوم في سيرة جلال الدين الرومي أنه لما خرجت جنازته ازدحم عليها أهل بلده وكأن القيامة قامت، وشيعها حتى النصارى واليهود، وبدت مدينة قونية قرية عالمية شهدت العولمة الإنسانية بدل العولمة الصراعية التي نعيشها اليوم، ولما بلغ ذلك حاكم البلد ، فقال

لرهبانهم: "مالكم ولجنازة عالم مسلم فأجابوه: "به عرفنا حقيقة الأنبياء السابقين، وفيه رأينا سيرة الأولياء الكاملين، فكان المسلمون يقولون: إنه كان نورا من أنوار رسول الله □، والمسيحيون يقولون: إنه كان على خلق المسيح عليه السلام، ويقول اليهود: إنه كان على خلق موسى عليه السلام"[33].

وقد ساهم هذا الطابع العالمي والإنساني للتصوف وخطابه في دخول الناس في دين الإسلام أفواجا، فكان لتراث الرومي –مثلا- الأثر الأكبر في اقتناع الداعية الإسلامي الكبير رجاء جارودي بدين الإسلام، كما يرجع الفضل في انتشار الإسلام في المليبا والمويلا والمالديف من بلاد الهند إلى جهود الصوفي الورع مالك بن دينار، وغيرها من الأمثلة الكثيرة التي تحكي فتح الصوفية للقلوب والأرواح قبل فتحهم للبلدان.

هذا الاتساع والاحتواء الذي يتميز به الخطاب الصوفي تشير إليه أبيات بن عربي المثيرة، والتي يقول فيها:

قد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي .. إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صارَ قلبي قابلاً كلَ صُورةٍ .. فمرعىً لغـــزلانٍ ودَيرٌ لرُهبَـــانِ
وبيتٌ لأوثــانٍ وكعــبةُ طـائــفٍ .. وألواحُ تـوراةٍ ومصـحفُ قـــرآنِ
أديـنُ بدينِ الحـــبِ أنّى توجّـهـتْ .. ركـائبهُ ، فالحبُّ ديـني وإيـمَاني[34]

وفي نفس المعاني يقول أمير العلماء وعالم الأمراء عبد القادر الجزائري –:

ففيَّ أنا كـل ما يأملــه الورى
فمن شاء قرآنا ومن شاء فرقانا
ومن شاء توراة ومن شاء إنجيلا
ومن شاء مزمارا زبورا وتبيانا [35]

هذه الأبيات لا تعني أن "الأمير والشيخ الأكبر يؤمنان بتكافؤ الأديان الناسخة والمنسوخة والعقائد القويمة والسقيمة، فسيرتهما ومواقفهما وأقوالهما الأخرى العديدة تنفي ذلك، وإنما ذلك تعبير عن شهود القهر الإلهي العام والإرادة النافذة للحق تعالى في جميع خلقه، فهو الذي خلقهم وما يعملون وما يعتقدون، وجاعل كل حزب بما لديهم فرحين، فهو الهادي وهو المضل، وهو جاعل الظلمات والنور. والذي ينبغي هنا هو التمييز بين نظرية تكافؤ كل الأديان، ونظرية قبول الله تعالى لعبده المجتهد والباذل وسعه في طلب الحق ورضوانه، فهو مأجور إن أصاب ومعذور إن أخطأ، سواء في الأصول أو الفروع، وهذا ما يقول به الأمير وأمثاله من العارفين لأن القرآن يقرره، حسب فهمهم وكشفهم"[36]، بمعنى آخر أن العبرة بالتدين وليست بالدين؛ فقد يفني –مثلا- راهب حياته في تعبده لله حسب معرفته وليس له دراية بالدين الإسلامي أو تكون قد وصلته الدعوة مشوهة، فهو عند الله تعالى مقبول بحسب مبلغه من العلم وبحسب اجتهاده في العبادة، ولا يضيع الله عمله، والصوفية من مبادئهم "ترك الخلق

للخالق" فلا يرون بأن مصيره هو النار لمجرد أنه غير مسلم، لإدراكهم بأن الله تعالى لا يضيع أجر عمل عامل منّا من ذكر أو أنثى.

وعليه ينتقل الاجتهاد عند علماء التصوف كالشيخ الأكبر وبعده الأمير عبد القادر من كونه وسيلة للطعن والتجريح وإقصاء الآخر إلى حد التكفير بل وسفك الدماء، إلى كونه مجالا رحبا للحوار العلمي العقلاني والإثراء الفكري الواسع الأفق. وكل ما ينتج عن الاجتهاد من صواب أو خطأ فهو من باب الرحمة الإلهية بالأمة ورفع الحرج عنها والتوسعة عليها، ومن ثَمّ فإن كل مجتهد صادق استفرغ كل الوسع هو –حسب ابن عربي- مصيب، فإما مصيب للحكم الإلهي على التعيين، أو مصيب للحكم المقرر الذي أثبته الله له، إذا لم يعثر على ذلك الحكم المعيّن وأخطأه. "لأن الكل من عنده تعالى، ومن تجلياته. إذ كلام الحق تعالى وكلام رسوله ﷺ بحر زاخر ما له ساحل، فكل ما فهمه الخلق في كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ الذي هو كلام الله على لسانه هو مراد ومقصود وإن خالف الحق ظاهرا"[37].

وكذلك الأمر فيما ذهب إليه الإمام الشعراني، حيث رفع حكم الاختلاف بين مختلف الآراء والمذاهب الصادرة من أصول الشريعة، فاستبدل مبدأ الاختلاف بمبدأ الاتساع المضبوط باجتهاد شرعي، استنادا لاتساع الشريعة نفسها، ويشبّه الشريعة بالشجرة، وفروعها بأقوال المجتهدين، ولما كان الفرع متصلا بالأصل (الشريعة)، فهو على حق ما دام قائما على أصل من أصولها وإن غاير فرعا آخر أو فروعا أخرى، ويذكر الشعراني هنا أن سفيان الثوري وغيره كانوا يكرهون قول الناس: قد اختلف العلماء، ويستبدلونه بقولهم: توسع العلماء[38]. وبهذه الرؤية يتم الانعتاق من الذاتية والإنّية والتعصب الضيق للمذهب والفكرة والرأي، والتحرر من استسلام الذهنيات للانتماءات السياسة والفكرانية والعرقية والجغرافية وغيرها من الانتماءات التي تحجب القلب وتُظلم العقل، ويتم فسح المجال لإنشاء ثقافة الحوار البناء وتنوع الأفكار والآراء والاتجاهات وتفاعلها، على نحو يستوعب الجميع، استنادا على قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة 256).

وقد لخص لنا الإمام "محمد زكي إبراهيم" شيخ الطريقة المحمدية الشاذلية وجهة نظر الصوفية للمخالف في المذهب -على الأقل-، فقال: "أهل القبلة جميعا إخواننا ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المؤمنون 52)، فلا خصومة أبدا بيننا وبين أي مذهب من مذاهب (لا إله إلا الله) سواء كانوا أحنافا، أو مالكية، أو شافعيين، أو حنابلة، أو زيديين، أو إمامية، أو ظاهرية، أو إباضيين، أو غيرهم؛ فإن الاختلاف في الفروع ضرورة طبيعية، ويستحيل استحالة مادية جمع الناس على مذهب واحد، أو رأي واحد... ونحن مع إمامنا جعفر الصادق في قاعدته العملية : (حسبنا من المسلم ما يكون به مسلما)".[39]

إن الصوفية وبناء على التخلق والتحقق بالوسع الإلهي، مقتنعون بأنه لا يقوم الائتلاف إلا في ضوء الاختلاف، وأن الاختلاف هو آية من آيات الخلق، وسبيل إلى

التحرر والتطوّر، وأداة للتعارف، وهو نعمة ورحمة إلهيتين، بل وهو سنة إلهية منذ أن خلق رب البشر البشر، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود 118-119)، ومن هنا فالأنا لا معنى لوجودها إلا من خلال الآخر، الذي به تكون المغايرة والاختلاف، حيث تتمايز الهويات من خلال مفارقة الأنا للأخر؛ و"لكي تعرف الآخر لابد أن تراه من حيث هو لا من حيث أنت"[40] اعترافا بالأنا، واعترافا في الآن ذاته بالآخر؛ لأنه لا تستقيم هوية للأنا من دون الآخر.

ومما تفطّن إليه علماء الصوفية، هو اختلاف مستويات المعرفة واختلاف الإدراك وتغاير التلقي؛ وذلك حينما قسموا المعرفة إلى ظاهر يطفو فيه المعنى على السطح، وباطن يتوارى فيه المعنى إلى الأغوار، ومع ذلك فهم -من باب الاعتراف بالآخر وحقه في امتلاك المعرفة- لم يقصوا الفهم الظاهري، ولكنهم لم يجعلوه الفهم الوحيد[41]، وبناء عليه يكون تعامل الأمير عبد القادر مع المنكرين عليه وعلى أمثاله وفق المبدأ: "لا نجادلهم بل نرحمهم، ونستغفر لهم، ونقيم لهم العذر من أنفسنا في إنكارهم علينا"[42].

فخطاب التصوف يؤمن بالاختلاف من حيث هو أصل الوحدة، ويفسح المجال للآخر ويحاول الانتقال من وهم الاختلاف إلى الهوية الكونية، من خلال التسامي فوق الأنا إلى التسامح والاعتراف بحق الاختلاف، فقد كان ابن عربي ظاهريا في العبادات باطنيا في السلوك والأذواق، وكذا الشأن بالنسبة للإمام عبد القادر الجيلاني وغيرهما من الأعلام. فالصوفية وإنْ تَعاملوا بالباطن فإنهم لم يلغوا الظاهر، ويرون بأن الذي "يجرد الظاهر حشوي، والذي يجرد الباطن باطني، والذي يجمع بينهما كامل".[43]

ولذلك تعاملوا مع الطوائف الأخرى الإسلامية منها وغير الإسلامية - من باب المغايرة والاختلاف - تعامل الموجود بالفعل، وهم لا يعرفون التكفير لأنهم أدركوا معنى الآية القرآنية ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء 44)، وهذا ما دفع بالحلاج إلى الغضب منْ ذَاكَ الذي سبَّ اليهودي، فرد عليه قائلا: "يا بني، الأديان كلها لله -عزَّ وجلَّ-، شغل بكل دين طائفة لا اختيارا فيهم، بل اختيارا عليهم"[44]. كما يظهر الأمير عبد القادر أيضا في أسمى صور التسامح فيردّ على خصومه قائلا:

جمالنا بعلوم أنت تجهلها ... بها حبانا الذي أهدى وجمّلنا
عرفنا كلّ الذي وصفتمونا به ... ونحن أعرفُ منكم بأنفسنا
فأنتم عندنا أرواح طاهرة ... ونحن عندكم رجس أجاهلنا.[45]

هكذا يُظهر الفكر الصوفي تسامحا واعترافا بالآخر، تفرضه طبيعة النظام الصوفي، بل طبيعة الحياة نفسها "وإذا كان الاختلاف في شؤون الحياة والمجتمع هو اختلاف مصالح وأعراض، فإن الاختلاف في شأن الدين والعقيدة هو اختلاف

تأويلات"[46]، يفرضها اختلاف الرؤى والتصورات، واختلاف الخلفيات والمرجعيات. وانطلاقا من هذا الوعي الإشكالي والمعرفي والمرجعي فإن الصوفية لا يشغلون أنفسهم بالرّد أو الاعتراض أو المساجلات والمناظرات، "وإن كان ولابد فليقل الواحد منهم كما قال الخضر لموسى -عليهما السلام-: "أنت على علم علّمكه الله، وأنا على علم علمنيه الله"[47]. أو كما قال الأمير عبد القادر لمخالفيه الذي قصرت عقولهم عن فهم مراميه: " واحذر أن ترميني بحلول أو اتحاد أو امتزاج أو نحو ذلك، فإني بريء من كل ذلك ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنني فهمت منها ما فهمت أنت وزدت عليك. وكلام الله وكلام رسوله بحر زخار لا نهاية لمدلولاته ولا قرار، وكل من قال في مسألة هذا مراد الله تعالى لا زائد عليه، أو مراد رسول الله ﷺ لا غير، فقد أعظم الفرية".[48]

ونختم هذا المبحث بذلك الشرح الراقي لأميرنا عبد القادر الجزائري للحديث النبوي: «رَجَعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ»[49]، والذي يُنبئ عن فهم عميق لمبادئ الدين، وعن اتساع أفق كبير، ويمثل قاعدة في التعامل مع الآخر. حيث يقول: "إنّه سمّى جهاد الكفار أصغر، لكون جهاد الكفار وقتلهم ليس مقصودا للشارع بالذات، إذ ليس المقصود من الجهاد إهلاك مخلوقات الله وإعدامهم، وهدم بنيان الرب تعالى وتخريب بلاده، فإنه ضد الحكمة الإلهية، فإن الحق تعالى ما خلق شيئا في السماوات والأرض وفي ما بينهما عبثا، وما خلق الجن والإنس إلاّ لعبادته، وهم عابدون له، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله، وإنما مقصود الشارع دفع شر الكفار وقطع أذاهم عن المسلمين، لأن شوكة الكفار إذا قويت أضرت بالمسلمين في دينهم ودنياهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج 40) ... فلَو فرض أنه لا يلحق المسلمين أذى من الكافرين، ما أبيح قتلهم، فضلا عن التقرب به إلى الحق تعالى... بخلاف جهاد النفس وتزكيتها فإنّه مقصود لذاته، إذ في جهادها تزكيتها، وفي تزكيتها فلاحها ومعرفة ربها، والمعرفة هي المقصودة بالحب الإلهي في الإيجاد... ولا ريب أن المقصود لذاته أكبر من المقصود لغيره"[50].

خاتمة:

لعل مهمة الخطاب الصوفي تتأكد انطلاقا من فشل وعجز الكثير من الخطابات الإسلامية المعاصرة عن اقتراح نموذج إنساني كوني، وعن تحويل الإسلام لنسق مفتوح. فانتشار ما يسمى بالإرهاب الإسلامي، وطغيان دولة الفكرة على دولة الإنسان، وانتشار استخدام سلاح التكفير والعنف لاغتيال المخالف في الفكر وإقصائه، وانتعاش الفكر الخارجي من جديد، كل هذا يجعل الحاجة ماسة لإعادة إحياء الخطاب الصوفي العرفاني القادر على خلق شروط حقيقية للاختلاف والتسامح والتلاقح، وترسيخ أخلاقيات الحوار والتكامل، والحدّ من نزق الأيديولوجيات وضيق أفق المعتقدات، وذلك بجعل هذا الاختلاف شرطا وجوديا للحكمة الإلهية، كما يمكنه أن

يحافظ على الإنسان باعتباره جوهرا وقيمة مركزية، فيبقى الإنسان مجرّدا عن أي انتماء، متساميا فوق كل الأفكار والمعتقدات والخلفيات.

إن الخطاب الصوفي وما يقوم عليه من مبادئ: الشهود الإلهي في الكون والإنسان، وسريان الحب في كل ثنايا الوجود، ومبدأ الوسع الإلهي، لكفيل بأن يشارك مشاركة فعالة في إنقاذ الإنسانية من غرقها في الماديات، وروحنتها، وربطها بالحقيقة الكبرى والغاية التي خُلقت من أجلها وهي الخلافة وما تتضمنه من عبادة ومعرفة وعمارة، التي ترفض كل مظاهر الانحراف والجهل والخراب.

ومن أهم المقترحات الأولية التي يمكن أن تساهم بها هذه الورقة ما يأتي:

1- بذل جهود جادّة لإخراج مكنونات الخطاب الصوفي من أدراج المخطوطات، وتحقيقها وضبطها وتصحيحها علميا، ومقاربتها مقاربة عصرية.

2- نظرا لضيق انتشار الخطاب الصوفي وبقائه رهين وسط أكاديمي ضيّق لا يتجاوز في أغلب الأحيان المنتسبين إليه أو المتخصصين فيه، ما يجعله حبيس أفق تداولي محدود، يُنقص من تعميم الفائدة، فإنه يستلزم العمل على توسيع مجال تداوله، وإنعاشه في مقابل الخطابات الإقصائية والانتقائية السائدة، التي عملت على تهميش وظيفة التزكية وروحنة الإنسانية، وروّجت للتقليد الأعمى وما ينتج عنه من إلغاء للآخر وإقصائه إلى حد إفنائه. وهذه المسؤولية تقع بالدرجة الأولى على عاتق الهيئات التي ساهمت في ذلك التهميش بدلا من إتاحة الفرصة لدراسته والتدربّ على مصطلحاته الرمزية وموضوعاته في المراحل الدراسية الأولى بحسب الحاجة، كالجامعات والمؤسسات الأكاديمية والإعلامية. فيتعين على هذه الهيئات بالاستعانة بمشايخ الطرق الصوفية الأكفاء عقد ملتقيات وندوات ودروس وغيرها من المبادرات التي تهتم بتقريب الخطاب الصوفي للأفهام، وإزالة غشاوة الغموض التي تعتريه.

3- إعادة قراءة المصطلحات الصوفية وخاصة الأكثر جدلا، كمصطلح وحدة الوجود الذي صُنّف بسببه أبرز أعلام التصوف في خانات الكفر والزندقة، والعمل على إعادة صياغتها صياغة معاصرة يعترف بها العقل ولا ينكرها، ويتيسر استيعابها والتواصل بها، ويمكن الاستعانة في ذلك بالعلوم المعاصرة، خاصة الفيزياء الكمومية التي تتلاقح أفكارها مع أفكار التصوف فيما يخص شهود ذلك الجانب الباطني للوجود الكوني الخاضع لقوانين تفوق مستوى الحواس.

4- يستلزم على المشتغلين بالخطاب الصوفي تطوير إستراتيجياته الخطابية، من خلال تبسيط لغته حتى يتمكن من اختراق جميع العقول والأرواح على اختلاف مستوياتها، فلا يبقى حكرا على أهله وخاصته فقط، حتى يؤدي وظيفته الكونية المنوطة به.

الهوامش:

- القرآن الكريم.

1- خالد إبراهيم المحجوبي، الخطاب الصوفي بين الفتنة والاغتراب، الحوار المتمدن، العدد 2791، 2011م، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=187005، تاريخ التصفح : 2017/04/08م- 03:27.

2- ابن منظور، لسان العرب، تقديم: عبد الله العلايلي، أعاد بناءه: يوسف خياط، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، 1988م، (217/9).

3- أنس محمد الطراونة، ظاهرة التطرف والإرهاب ما بين الفكر والفعل، المركز الديمقراطى العربى في قسم الدراسات الدينية والجماعات الاسلامية http://democraticac.de/?p=24980 ، تاريخ التصفح: 2017/4/5 - 00:38.

4- أخرجه أبو داود، (5116)، كتاب الأدب، باب التفاخر بالأحساب، ، ورواه أحمد في مسنده، (8721).

5- محيي الدين الألوائي، مفهوم السلام العالمي في نظر الإسلام، الخليج اليوم -قضايا إسلامية-، قطر، الأربعاء 2 يوليو1986م، (الموقع الرسمي للدكتور محيي الدين الألوائي).

6- هذا المبدأ الصوفي بدأ يتحقق في عصر الفيزياء الكمومية وصِلتها بعلم الكون، إذ تتداول بكثرة في هذين العلمين كلمات: الحب والعشق والتصوف، للدلالة على طبيعة العلاقات التي تشد الذرات ومكوناتها إلى بعضها بعضا. حيث يقول العالم الفزيائي: فري بيتو في كتابه: إبداع الفنان: نظرة شمولية للكون، ترجمة: باسل فريحات، مراجعة: مها عرنوق، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2005م: "كانت الكواركات قد تجمعت لتشكل البروتونات والنيوترونات التي اتحدت بجاذبية تشبه العشق بشدتها، كأن الحب تفجّر في أعماق الكون للمرة الأولى": ص104، ويضيف: "إن ما يحافظ على الذرة هو –بشكل ما- حادثة حب، هي الجذب بين الشحنات الموجبة للبروتونات والشحنات السالبة للإلكترونات... والذرات أشبه بالعاشقين، لا تتحد إلا إذا هيِّجت"، ص118-119، ثم يقول في سياق حديثه على الفيزياء الكمومية وعلى لغة التعبير عن مفاهيمها: "لا يمكننا أن نعبر عنها إلا بلغة رمزية صوفية أو رياضية"، ص80. لذا يؤكد العالم الفزيائي أينشتاين بأن: "الإنسان الذي لم يختبر وقفة من وقفات الصوفية حيال العالم، ولم يشعر نحوه بالروعة والإيمان هو حي حكمه حكم الميت": جواد المرابط، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري، دار اليقظة العربي، دمشق، 1966م، ص14.

7- أورده العجلوني، كشف الخفاء، (2016)، وقال: قال ابن تيمية: لا يُعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر والسيوطي وغيرهم، وقال القاري: لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" أي ليعرفوني كما فسرها ابن عباس، (173/2).

8- محمود محمود الغراب، الحب والمحبة الإلهية من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، دمشق، ط2، 2012، ص13.

9- أمين يوسف عودة، التصوف شهودا وحبا وخطابا وأثره في روحنة الإنسانية والتقريب بين الأنا والآخر، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016م، ص26.

10- رواه البخاري،(12) كتاب الإيمان ، باب إطعام الطعام من الإسلام.

11- سراج الدين الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، تحقيق: طه عبد الباقي سرور وعبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960م، ص45.

12- خالد ميار الإدريسي، الدبلوماسية الروحية في خدمة الامان العالمي، (محاضرة صوتية قُدمت بالملتقى العالمي للتصوف، الطبعة11: التصوف وثقافة السلام: رؤية إسلامية كونية لترسيخ قيم التعايش والسلم الحضاري، إقليم بركان - المغرب، 1438ه، 2016م، http://www.rencontremondialedusoufisme.com/categorie/soufisme-et-culture-de-paix/، تاريخ التصفح: 2017/4/6- 23:42.

13- بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، دار الوعي، ط2، 2012م، (49/1).
14- رواه أبو داوود، (3052)، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات.
15- جواد المرابط، تصوف الأمير عبد القادر، ص 46.
16- عبد الرزاق الكاشاني، معجم مصطلحات الصوفية، تحقيق وتعليق: عبد العال شاهين، مصر، دار المنار، ط1، 1992م، ص12.
17- يوسف زيدان، القاهرة، دوامات التدين، دار الشروق، ط1، 2013م، ص259.
18- عبد القادر الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تحقيق وتقديم: بكري علاء الدين، دمشق، دار نينوى، 2014م، (25/1)، (141/1-142).
19-ابن عربي، فصوص الحكم، تعليق: أبو العلا العفيفي، بيروت، درا الكتاب العربي، (36/1).
20- السابق (49/1).
21- عبد القادر الجزائري، بغية الطالب، اعتنى به: عاصم إبراهيم الكيالي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004م، ص150.
22- ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق: حسين آيت سعيد، بيروت، دار الفكر، 2000م، ص72.
23- ابن عربي، فصوص الحكم، (50/1).
24- ابن عربي، الفتوحات المكية، ضبطه ووضع فهارسه: أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1999م، ج1، ص18.
25- رواه مسلم، (234)، كتاب: الإيمان، باب: ذهاب الإيمان آخر الزمان.
26- ابن عربي، نقد النصوص في شرح نقش الفصوص (الرسالة27)، بيروت، دار إحياء التراث، ص2.
27- سامي مكارم، الحلاج في ما وراء المعنى والخطوط واللون، رياض الريس للكتب والنشر، 2004م، ص33.
28- السابق، ص33.
29- عبد الباقي مفتاح، الأمير عبد القادري الجزائري والفتوة، حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد4، 2005م، ص76.
30- مصطفى محمود، سواح في دنيا الله، القاهرة، دار أخبار اليوم، 2000م، ص7.
31- محمد إقبال، ما وراء الطبيعة في إيران، تحقيق: محمد مجيب المصري، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1987م، ص125.
32- عودة، النزعة الانسانية عند جلال الدين الرومي، صحيفة الرأي ، 2017/02/09م، http://alrai.com/article/10376219، تاريخ التصفح: 2017/04/08- 02:04.
33- جيهان أوكويوجو، مولانا جلال الدين الرومي، ترجمة: أورخان محمد علي، القاهرة، دار النيل، ط1، 2013م، ص44.
34- ابن عربي، ترجمان الأشواق، اعتنى به: عبد الرحمان المصطاوي، بيروت، دار المعرفة، ط1، 2005م، ص62.
35- عبد القادر الجزائري، المواقف ، (25/1).
36- عبد الباقي مفتاح ، الأمير عبد القادر الجزائري والفتوة، ص73- 74.
37- ابن عربي، الفتوحات، (249/3)، ويُنظر: المواقف للأمير، (148/1).
38- الشعراني، الميزان الخضرية، تحقيق ومراجعة: عبد الرحمان حسن محمود، القاهرة، عالم الفكر، 1989م، ص7.
39- محمد زكي إبراهيم، أصول الأصول: أدلة أهم معالم الصوفية الحقة من صريح الكتاب وصحيح السنة، القاهرة، منشورات العشيرة المحمدية، ط4، 1995م، ص7- 9.
40- أدونيس، الصوفية والسوريالية، بيروت، دار الساقي، ط1، 1982، ص26.

41- أحمد بوزيان، الخطاب الصوفي بين الهوية والاختلاف: الأنا والآخر، مجلة التفاهم، العدد 39، 1434ه،2013م، http://tafahom.om/index.php/nums/view/9/189، تاريخ التصفح: 2017/01/07م- 23:44.

يقول الأمير في أول موقف من مواقفه: "إن القوم ما أبطلوا الظواهر، ولا قالوا ليس المراد من الآية إلا ما فهمنا، بل أقرّوا الظواهر على ما يعطيه ظاهرها، وقالوا: فهمنا شيئا زائدا على ما يعطيه ظاهرها." المواقف، تح: علاء الدين، (34/1).

42- الأمير، المواقف ، (11/1-12).

43- أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار ومصباح الأسرار، شرح وتحقيق: عبد العزيز عز الدين سيروان، بيروت، دار عالم الكتب، ط1، 1986م، ص160.

44- الحسين بن منصور الحلاج، ديوان الحلاج، وضع حواشيه وعلق عليها: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1423هـ/2002م، ص153.

45- الأمير، المواقف، (16/1).

46- نصر حامد أبو زيد، الخطاب والتأويل، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000م، ص58.

47- الأمير، المواقف ، (367/1).

48- السابق، (275/2).

49- أخرجه العجلوني،(1362)، كشف الخفاء.

50- الأمير، المواقف، (1/ 133 و134).